

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- [الفصل الخامس] :

- ﴿﴾ من روائع الخطب ﴿﴾ -



- ❖ الحجاج بن يوسف الثقفي ❖ -

خطبته حين ولي العراق :

حَدَّثَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ عُمَيْرٍ اللَّيْثِيُّ ؛ قَالَ :

بينما نحن في المسجد الجامع بالكوفة ، وأهل الكوفة يومئذ ذوو حال حسنة ، يخرج الرجل منهم في العشرة والعشرين من مَوَالِيهِ ؛ إذ أتى آتٍ ، فقال : هذا الحجاج قد قدم أميراً على العراق ؛ فإذا به قد دخل المسجد مُعْتَمِئاً بعمامة قد غطى بها أكثر وجهه مُتَقَلِّداً سيفاً ، متنكباً قوساً ، يؤم المنبر ، فقام الناس نحوه حتى صعد المنبر ، فمكث ساعة لا يتكلم ، فقال الناس بعضهم لبعض : قَبَّحَ اللَّهُ بُنْيَ أُمِيَّة ؛ حيث تستعمل مثل هذا على العراق ! ! ؛ حتى قال عُمَيْرُ بْنُ ضَابِيٍّ الْبَرَجَمِيُّ : ألا أحصيه لكم ؟ ؛ فقالوا : أمهل حتى ننظر .

فلما رأى عيون الناس إليه ؛ حسر اللثام عن فيه ؛ ونهض فقال :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا

متى أضع العمامة تعرفوني .

ثم قال :

يا أهل الكوفة ! أما والله إني لأحمل الشرَّ بحمله ، وأحذوه بنعليه ، وأجزيه
بمثله ، وإني لأرى أبصاراً طامحة ، وأعناقاً متطاوله ، ورءوساً قد أينعت
وحان قطافها ؛ وإني لصاحبها ، وكأنني أنظر إلى الدماء بين العمائم
واللحي تترقرق !!

ثم قال :

هذا أوان الشدِّ فاشتدي زيمَ
قد لفَّها الليلُ بسواقِ حُطَمَ
ليس براعي إبلٍ ولا غنمٍ
ولا بجزَّارٍ على ظهرٍ وَضَمَ

ثم قال :

قد لفَّها الليلُ بعصليَّ
أروغُ خراجٍ من الدَّويَّ
مهاجرٌ ليس بأعرابيَّ

ثم قال :

قد شمرت عن ساقها فشُدُّوا
وجدتِ الحربُ بكم فجِدُّوا
.. والقوس فيها وترٌ عُردُّ
.. مثل ذراع البكر أو أشدُّ
... لا بدَّ مما ليس منه بُدُّ

إني والله يا أهل العراق ! ومعدن الشقاق والنفاق ! ومساوئ الأخلاق ! ما يقع لي بالشنان !، ولا يُغمر جانبي كتغماز التين !، ولقد فُرتُ عن ذكاء، وفُتشتُ عن تجربة، وجريت إلى الغاية القصوى !.

وإن أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - نثر كنانته بين يديه، فعجم عيدانها؛ فوجدني أمرها عوداً، وأصلبها مكسراً؛ فرماكم بي؛ لأنكم طالما أوضعتم في الفتن، واضطجعتم في مراقد الضلال، وسنتم سُنن الغي ! أما والله لأحوثكم لحو العصا، ولأقرعنكم قرع المروة، ولأعصبنكم عصب السلمة، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل؛ فإنكم لكأهل قرية ﴿كَأَتْ أَمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ ! وإني والله لا أعد إلا وفيتُ، ولا أهُم إلا أمضيتُ، ولا أخلق إلا فريتُ؛ فإياي وهذه الشفعاء، والزرافات والجماعات، وقالاً وقيلاً، وما تقول؟ ! وفيم أنتم وذاك؟ ! أما والله لتستقيمنَّ على طريق الحق؛ أو لأدعنَّ لكل رجل منكم شغلاً في جسده.

وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم، وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة؛ وإني أقسم بالله لا أجد رجلاً تخلّف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام؛ إلا سفكت دمه، وأنهبت ماله، وهدمت منزله..».



♦ الحَسَنُ الْبَصْرِيُّ - رحمه الله تعالى - ♦

- قال - رحمه الله تعالى - :

« يابن آدم ! بع دنياءك بأخرتك تربحهما جميعاً ، ولا تبع آخرتك بدنياءك فتخسرهما جميعاً .

يابن آدم ! إذا رأيت الناس في الخير فنافسهم فيه ، وإذا رأيتهم في الشر فلا تغبطهم عليه .

الثواء ههنا قليل ، والبقاء هناك طويل ، أمتكم آخر الأمم ، وأنتم آخر أمتكم ، وقد أُسرِعَ بخياركم ، فماذا تنتظرون ؟ المعاناة ؟ ! فكأن قد ، هيهات هيهات ! ذهبت الدنيا بحاليها ، وبقيت الأعمال قلائد في أعناق بني آدم .
فيا لها موعظة لو وافقت من القلوب حياة ! أما إنه والله لا أمة بعد أمتكم ، ولا نبي بعد نبيكم ، ولا كتاب بعد كتابكم ، أنتم تسوقون الناس ؛ والساعة تسوقكم ، وإنما يُنتظر بأولكم أن يلحقه آخركم ، من رأى محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَدْ رَأَاهُ غادياً ورائحاً ؛ لم يضع لبنة على لبنة ، ولا قصبة على قصبة ، رُفِعَ له علم ، فشمِرَ إليه ، فالوحاء الوحاء ! والنجاء النجاء ! علام تخرجون ؟ ! أُتِيتُمْ وربّ الكعبة ! قد أُسرِعَ بخياركم ! وأنتم كل يوم تزدلون ! ، فماذا تنتظرون ؟ ! .

إن الله تبارك وتعالى بعث محمداً عليه الصلاة والسلام على علم منه ، اختاره لنفسه ، وبعثه برسالته ، وأنزل عليه كتابه ، وكان صفوته من خلقه ، ورسوله إلى عباده ؛ ثم وضعه من الدنيا موضعاً ينظر إليه أهل الأرض ، وآتاه منها قوتاً وبلغه ، ثم قال : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ .

فرغب أقوام عن عيشه ، وسخطوا ما رضي له ربه ، فأبعدهم الله وأسحقهم .
يابن آدم ! طِئِ الأرض بقدمك ، فإنها عن قليل قبرك ، واعلم أنك لم تزل في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك ، رحم الله رجلاً نظر فتفكر ، وتفكر

فاعتبر، وأبصر فصبر، فقد أبصر أقوام ولم يصبروا، فذهب الجزع بقلوبهم، ولم يدركوا ما طلبوا، ولم يرجعوا إلى ما فارقوا !
 يابن آدم ! اذكر قوله : ﴿ وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمَتْهُ طَائِرُهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ، اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۚ .
 عدلوا لله عليكم من جعلك حسيب نفسك ، خذوا صفا الدنيا وذروا كدرها ،
 فليس الصفو ما عاد كدرًا ، ولا الكدر ما عاد صفوًا ، دعوا ما يريبكم إلى ما لا يريبكم .

ظهر الجفاء ، وقلت العلماء ، وعفت السنّة ، وشاعت البدعة .
 لقد صحبت أقواماً ما كانت صحبتهم إلا قرة العين وجلاء الصدور ، ولقد رأيت أقواما كانوا من حسناتهم أن ترد عليهم أشفق منكم من سيئاتكم أن تعذبوا عليها ، وكانوا فيما أحلّ الله لهم من الدنيا أزهد منكم فيما حرم الله عليكم منها ! .

ما لي أسمع حسيساً ، ولا أرى أنيساً ؟ ! ؛ ذهب الناس ؛ وبقي النسناس ! .
 لو تكاشفتهم ما تدافنتم ! تهاديتهم الأطباق ، ولم تتهادوا النصائح ! .
 قال ابن الخطاب : رحم الله امرأً أهدي إلينا مساوينا .
 أعدوا الجواب فإنكم مسئولون ، المؤمن من لم يأخذ دينه عن رأيه ، ولكنه أخذه من قبل ربه ، إن هذا الحق قد جهد أهله ، وحال بينهم وبين شهواتهم ، وما يصبر عليه إلا من عرف فضله ورجا عاقبته ، فمن حمد الدنيا ذم الآخرة ، وليس يكره لقاء الله إلا مقيمٌ على سخطه .
 يابن آدم ! الإيمان ليس بالتحلي ولا بالتمني ؛ ولكنه ما وقر في القلوب ؛ وصدقه العمل . » .

